الفصل الثانى

جرير فى عصره

١ ـ حياته

(أ) اسمه ونسبه :

هو جرير بن عطية بن الخطفى . وجدّه الخطفى من العلماء بالنسب وبالغريب ، وهو حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم[1] ، وإنما سمى الخطفى لأبيات قالها :

رَفَعْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا مَا أَسْدَفَا أَعْنَاقَ جِنَّانٍ وَهَاماً رُجَّفَا
وَعَنَقاً بَاقِ الرَّسِيمِ خَيْطَفَا[2]

(ب) كنيته :

يكنى جرير بأبى حزْرَة ، وحزْرَةُ ابنه الأكبر ، كما يكنى بابن المراغة ، والمراغة من الأسماء القبيحة للأتان ، لقب نُبزَتْ به أمه من أحد الشعراء الذين هاجوه ، لأن كليباً كانت رعاة غنم وحمير .

(جـ) منازل قبيلته :

كانت قبيلته كليب حيًّا من أحياء يربوع من بنى تميم ، وكان بنو كليب

---

(١) « الأغانى » و « البيان والتبيين » وشرح ديوان الحماسة .

(٢) قال الجاحظ : إن العنق ضرب من السير وهو المسبطر ، فإذا ارتفع عن العنق قليلا فهو التزيد ، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل ، والرسيم فوق الذميل ، والخيطف السريع أى يخطف كما يخطف البرق ، وخيطف من الخطف والياء زائدة فى خيطف كما قالوا رجل صيرف من الصرف ، ورجل جيدر من الجدر وهو القصر ، وأصل الخطف الأخذ فى سرعة ثم استعير لكل سريع .

رقاق الحال ، يرعون الغنم والحمير ، لا خيل لهم ولا جمال ، وينزلون بالبادية بقرية حجر ، من قرى اليمامة بالجنوب الشرقي من نجد ، وتعرف الآن بالرياض.

(د) طفولته :

ولد بالبادية سنة تسع وعشرين من الهجرة[١] في خلافة عثمان ، ويروي أن أمه أم قيس بنت معبد بن كليب بن يربوع والحقّةُ لقبها ، حملته سبعة أشهر[٢] ، ورأت وهي تحمله رؤيا أفزعتها ، فذهبت إلى المعبّر فقال لها : لتلدنّ ذا منطق جزل ، فكانت ترقصه بقولها :

قصصت رؤياي على ذاك الرجلْ ... فقال لي قولا وليت لم يقلْ
لتلِدِنَّ عضلة من العضلْ ... ذا منطقٍ جزلٍ إذا قال فصَلْ
مثل الحسام العَضب ماس قصلْ ... يعدل ذا الميل ولما يعتدل[٣]

فحبا بين رَجز الأم ، وشاعرية الأب ، وتناشد العشيرة ، ودَرَج بين مدارج الشعر ، أذن تسمع ، ونفس تطبع .

(هـ) شبابه

شبّ بدوياً فقيراً يرعى على أبيه غنيمات من الضأن والمعز ، ويسوق الحُمُر ، ويرى نطاح الكباش ، ورماح الحمير ، ونزاء التيوس ، وهجاء القوم ، فاستمرّ مريره ، وزخر بالهجاء نشيده .

ونطق بالشعر صبياً ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، وقارض أخاه الأكبر

---

(١) شرح « البيان والتبيين » ١ / ١٤٩ .

(٢) « المعارف » لابن قتيبة « وشرح الديوان » و « الشعر والشعراء » .

(٣) « خزانة الأدب » « وشرح الديوان » . سمته أمه جريراً – والجرير : الحبل – لأنها رأت كأنها ولدت حبلا أسود يقفز على بعض الناس فيخنقه ، ولما أولت رؤيا ها ، قيل لها تلدين شاعراً ذا شرة وقوة شكيمة وبلاء .

عَمْرًا الشعر[١] ، وهاجى غسان السليطى برجز مفحش ، طرب له قومه ، واعتزوا به ، وسارت له أبيات تمثل بها يزيد بن معاوية أمام أبيه ، فقد أثر عن جرير قوله : « وفدت إلى يزيد بن معاوية وأنا شاب ، فاستؤذن لى عليه فى جملة الشعراء ، فخرج الحاجب إلىّ وقال : يقول لك أمير المؤمنين : إنه لا يصل إلينا شاعر ولا نعرفه بشىء من شعره ، وما سمعنا لك بشىء ، فنأذن لك على بصيرة ، فقلت له : تقول لأمير المؤمنين أنا القائل :

وَإِنِّى لَعَفُّ الفَقْرِ مُشْتَرَكُ الغِنَى
سَرِيعٌ - إِذَا لَمْ أَرْضَ دَارِى - انْتِقَالِيَا[٢]
جَــرِىءُ الْجَنَانِ ، لَا أَهَابُ مِنَ الرَّدَى
إِذَا مَا جَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا[٣]
وَلَيْسَ لِسَيْفِى فِى الْعِظَامِ بَقِيَّــةٌ
وَلِلسَّيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا[٤]

فدخل الحاجب إليه ، فأنشده الأبيات ، ثم خرج إلىّ ، وأذن لى ، وأنشدته وأخذت الجائزة مع الشعراء ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة . وقال لى : فارق أبى الدنيا وما يظن أن أبياتك التى توسلت بها إلىّ إلا لى[٥] .

(و) إخوته :

من إخوته عَمْرو ، وأبو الورد ، فأما أبو الورد فكان يحسد جريراً ، فذهبت لجرير إبل ، فشمت به أبو الورد ، فقال له جرير :

---

(١) « مهذب الأغانى » .
(٢) فى هذا البيت مبادئ الاشتراكية والعزة . وروى احتماليا .
(٣) روى : جعلت السيف من عن شماليا .
(٤) روى : ولا السيف . والشوى غير المقتل ذلك أن السهم يمر بين الشوى وهى القوائم
(٥) « الأغانى ومهذبه » .

أَبَا الْوَرْدِ أَبْقَى اللهُ مِنْهَا بَقِيَّةً كَفَتْ كُلَّ لَوَّامٍ خَذُولٍ وَحَاسِدِ

وأما عمرو فكان أكبر من جرير ، وكان يقارضه الشعر ، فقال له جرير :

أَعَمْرُ وقَدْ كَرِهْتُ عِتَابَ عَمْرٍو وَقَدْ كَثُرَ المَعَاتِبُ والذُّنُوبُ
وَقَدْ صَدَّعْتُ صَخْرَةَ مَنْ رَمَاكُمْ وَقَدْ يُرْمَى بِيَ الْحَجَرُ الصَّلِيبُ
وَقَدْ قَطَعَ الحَدِيدَ فَلَا تُمارُوا فِرِنْدٌ لا يُفَلُّ وَلَا يَنُوبُ[1]

(ز) أزواجه :

منهن أمامة أم حكيم ونوح وبلال ، وقد ورد اسمها فى كثير من شعره ، وكان السبب فى اتصالها بجرير : أنه لما قدم العراق دخل على الحكم بن أيوب عامل الحجاج على البصرة ومدحه ، فكتب الحكم إلى الحجاج فى شأنه وقال له : إنه قدم على أعرابى باقعة لم أر مثله ، فطلبه الحجاج ، فلما دخل عليه قال له : بلغنى أنك ذو بديهة ، فقل فى هذه الجارية — وكانت قائمة على رأسه بيضاء مديدة القامة واسمها أمامة — فقال جرير[2] :

وَدِّعْ أُمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ إِنَّ الْوِدَاعَ لِمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ
مِثْلَ الكَثِيبِ تَمَايَلَتْ أَعْطَافُهُ فَالرِّيحُ تَجْبُرُ مَتْنَهُ وَتُهِيلُ
هَذِى الْقُلُوبُ صَوَادِياً تَيَّمْتَهَا وَأَرَى الشِّفَاءَ وَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

فقال له الحجاج : قد جعل الله لك السبيل إليها ، خذها هى لك ، فضرب بيده إلى يدها ، فتمنعت عليه فقال :

---

(١) « الأغانى ومهذبه » . الفرند : السيف ويجوز أن يكون أراد : ذو فرند فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

(٢) « البيان والتبيين » و « الكامل » .

إنْ كَانَ طَبَّكُمُ الدَّلالُ فَإِنَّهُ حَسَنٌ دَلالُكِ يَا أُمَام جميلُ

فضحك الحجاج ، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة . وأهلها من أهل الرى وإخوتها أحرار[1] . وكانت أعجمية ذات لكنة ، فقال لها جرير : لا تتكلمى إذا كان عندنا رجال !

ومن زوجاته اللائى ورد ذكرهن فى شعره : سلمى ، وخالدة بنت سعد أم حزْرَة[2] ، وهى التى أوجعه فراقها فبكاها بمرثيته المشهورة :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَعَادَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وقد ذاعت أبياتها حتى بكى بها نساء العراق فقيدات الفرزدق .

وممن ذكرهن فى شعر – إقامة للوزن ، وتحلية للنسيب – : جمل ، وأسماء ، وتماضر فى قوله :

أَجَدَّ رَوَاحُ الْقَوْمِ بَلْ لَاتَ رَوَّحُوا نَعَمْ كُلُّ مَنْ يُعْنَى بِجُمْلٍ مُبرَّحُ[3]

ثم قال فى نفس القصيدة :

إِذَا سَايَرَتْ أَسْمَاءُ يَوْماً ظَعَائِناً فَأَسْمَاءُ مِنْ تِلكَ الظَّعائِنِ أَمْلَحُ
ظَلَلْنَ حوالَىْ خِدْر أسماءَ فَانتحَى بِأَسْمَاءَ موَّارُ المِلاَطَيْنِ أَرْوَحُ
صَحَا الْقَلْبُ عن أَسْمَاوَقَدْبرحتْ بِهِ وَمَا كَانَ يَلْقَى مِنْ تُمَاضُرَ أَبْرَحُ[4]

وممن تغزل بهن : هند وزينب وبوزع التى أنكر عبد الملك على جرير إيرادها فى شعره حين قال :

---

(١) « البيان والتبيين » ٢ / ١٧٠ و « الكامل » للمبرد .

(٢) « الأغانى » و « شرح الديوان » .

(٣) هذه رواية ابن رشيق فى « العمدة » ، وفى « الديوان » روى :

أجد رواح القوم أم لا تروح نعم كل من يعنى بجمل متوح

وهى رواية جيدة . والمتوح : المحزون .

(٤) « العمدة » لابن رشيق ٢ / ٩٨ الظعينة : المرأة فى الهودج . برحت به : شقت عليه الملاطان : جانبا السنام فى مرد الكتفين . الموار : كثير الحركة . الأروح الواسع ما بين القوائم

وَتَقُولُ بوْزَعُ قَدْ دَبَبْتَ علَى الْعَصا هَلَّا هَزِئْتِ بِغَيْرِنَا يَا بَوْزَعُ[1]

(ح) أولاده وأحفاده :

له عشرة من الولد ، فيهم ثمانية ذكور ، منهم ، حزْرَة ، وعِكْرِمة ، وسوَادَة ، وحكيم ، ونوح ، وبلال ، وموسى .

ومن أحفاده : حجناءُ بن نوح ، وعقيل بن بلال ، وعُمارة بن عقيل بن بلال ، وكان عُمارةُ هذا شاعراً مقدّماً فصيحاً هجاءً خبيثاً ، مَدّاحاً لخلفاء الدولة العباسية ، زوّاراً لأمرائها ، أخذ عنه رواة البصرة ونحاتها ، واعتمدوا قوله ، وقالوا : إن شعره أشد استواء من شعر جده جرير[2] ، وبه ختمت الفصاحة فى شعراء المحدَثين[3] .

وكان جرير يجلس إليهم يبصرهم بالشعر والشعراء ، حتى نشئوا جميعاً يجيدون قرض الشعر ، ويحسنون نقده . وكان يقول لهم : أطيلوا الهجاء وأقصروا المادحة . ومما يروى أن عكرمة قال لأبيه : يا أبت : من أشعر الناس ؟ فقال : آلجاهلية تريد أم الإسلام ؟ فقال عكرمة : أخبرنى عن الجاهلية ، قال : شاعر الجاهلية زهير ، قال عكرمة : فالإسلام ؟ قال نبعة الشعر الفرزدق ، قال عكرمة : فالأخطل ؟ قال : يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت الخمر ، قال عكرمة : وما تركت لنفسك ؟ قال : دعنى فإنى بحرت الشعر بحراً[4] .

ومات ابنه سوادة بالشام وكان به معجباً ، فرثاه بأبيات رواها بشار بن برد فى حوار له مع ابن سلام ، ومنها :

---

(١) وتأييداً لهذا الإنكار أوردها شاعر النيل حافظ إبراهيم فى شعره وضمنها قصيدته فى مهرجان شوقى حيث قال يخاطبه :

وقفنا على النهج القويم فإننا سلكنا طريقاً للهدى غير مهيع
ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعة بهند ودعد والرباب وبوزع

(٢) « شرح البيان والتبيين » ٣/٢٠ .
(٣) « تاريخ آداب العرب » لمصطفى صادق الرافعى .
(٤) « مهذب الأغانى » ٥/٦٧ « والعمدة » ١/٦١ .

فَارَقْتَنِى حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِى ... وَحِينَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرُّمَّةِ البَالِى
أمسى سَوَادَةُ يجلو مُقْلَتَىْ لَحِمٍ ... بازٍ يُصَرْصِرُ فوق المَرْبَأِ العَالِى[1]

ومن بناته أم مِسْحَل زيداء . وقد تزوجت من كُسَيْب من بنى الخطفى ، وابنها مسحل روى كثيراً من شعر جرير وأخباره [2] .

(ط) أسرة كلها شعراء :

من بيوتات الشعر فى الإسلام بيت جرير ؛ كان هو وأبوه عطية ، وجده الخطفى شعراء ؛ وكان بنوه وبنو بنيه شعراء .

قال أبو زياد الكلابى : رأيت باليمامة نوحاً وبلالا ابنىْ جرير ، وهما يتسايران . ولهما جمال وهيئة وقدر عظيم ، وأشعر من باليمامة يومئذ حجناء بن نوح ابن جرير ، وكان عقيل بن بلال شاعراً ، وعمارة ابنه شاعراً أدرك الطائى حبيباً ولقيه المبرد [3] .

(ى) اتصاله بالخلفاء والأمراء :

دفعت الظروف الاقتصادية الشعراء إلى أن يقصدوا الخلفاء والأمراء وذوى اليسار يمدحونهم ، ويغترفون من بحور عطاياهم ؛ وأمدّ لهم الأمويون فى ذلك ، تعزيزاً لمآربهم السياسية ، إذ كان السخاء فى بذل العطاء إحدى وسائلهم فى استلال السخائم من نفوس الأعداء ، وقطع ألسنة الشعراء .

وأول خليفة وفد عليه جرير فى صدر شبابه ، ونال جائزته يزيد بن معاوية ، وكان اتصاله بالحكم بن أيوب عامل الحجاج على البصرة سبيلاً إلى اتصاله بالحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى قربه منه ، واتخذه شاعراً رسمياً يمدحه ،

---

(١) « الأغانى ومهذبه » .
(٢) « ديوان النقائض » .
(٣) « العمدة » ٢ / ٢٣٦ .

ويوضح منهاج سياسته الحازمة .

إنَّ ابنَ يوسُفَ فاعلموا وتيقَّنوا ماضى البصيرةِ واضِحِ المنهاجِ

ويصْغىَ عبد الملك إلى شعره . فيغبط الحجاج عليه . ويتمنى أن لو صار إليه . ويعرف الحجاج ذلك فيه . كما يعرف أنه يكره لقاءه لزبيريته فى ماضى أيامه . فأنفذ معه ابنه محمد بن الحجاج . فاستقبله عبد الملك بعد عناء . وعاتبه قائلا : ماذا عسى أن تقول فينا بعد قولك بالحجاج عاملنا :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْهِمُ أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ

إن الله لم ينصرنا بالحجاج . وإنما نصر دينه وخليفته . وظهر الغضب فى وجه عبد الملك فتوسط ابن الحجاج فى الرضا . وأنشد جرير قصيدته حتى بلغ قوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

فتبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن . وما زلنا كذلك . وأمر له بمائة لقحة . وثمانية من الرعاء [1] . ومن ذلك الحين وهو يتشيع لعبد الملك وأبنائه . فمدح الوليد وسليمان ويزيد .

وله اتصالات ببشر بن مروان أخى عبد الملك . وبولاة ابن الزبير ، ومنهم الحارث بن أبى ربيعة المخزومى والى البصرة . المعروف بالقُبَّاع .

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز وهو لا يأذن للشعراء . ولا يرى لهم حقًّا من العطاء . وفد عليه ورأى عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود يدخل على الخليفة ، وعليه عمامة قد أرخى طرفيها . فصاح به :

يأَيُّها الْقَارِئُ الْمُرْخِى عِمَامَتَه هَذا زمَانُك إنِّى قدْ مَضَى زَمَنِى

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » .

أَبلِغْ خَلِيفَتَنَا إِنْ كُنْتَ لاقِيَهُ أَنِّى لَدَى الْبابِ كالْمَصْفُودِ فِى قَرَنِ

فدخل وأنشد قصيدة منها :

إِنَّا لَنَرْجُو إِذا مَا الْغَيْثُ أَخْلَفَنا مِنَ الْخَلِيفَةِ ما نَرْجُو مِنَ الْمَطَرِ

فأعجب عمر بها . واعتذر ولم يعطه . ولما ألح جرير قال بنو أمية : مهلا يا أبا حزْرة ونحن نرضيك . وجمعوا له مالاً كثيراً . فما خرج من عند خليفة بأكثر مما خرج من عند عمر [١] واتصل بكثير غير هؤلاء . وله مع هشام بن عبد الملك آخر خليفة اتصل به مواقف معروفة .

(ك) صفاته :

كان يخنخن فى لفظه . فيخرج الكلام من أنفه أو كأن فيه نوناً [٢] ، وكان مديد القامة ، قوى البنية . جميل الشعر ، ديِّنا عفيفاً ، يذكر الله كثيراً ، ويسبحه بكرة وأصيلاً . بصر به الفرزدق محرماً فقال : والله لأفسدن على ابن المراغة حجه ، ثم جاءه مستقبلاً له . فغمزَه بمشقص [٣] كان معه . وقال :

فَإِنَّك لَاقٍ بِالْمَشَاعِرِ مِنْ مِنًى فَخَارًا فَخَبِّرْنى بِمَنْ أَنْتَ فَاخِرُ

فقال جرير : لبيك اللهم لبيك . ولم يجبه [٤] .

ومرت به جنازة فبكى وقال : أحرقتنى هذه الجنازة . قيل : فلم تقذف المحْصَنات ؟ قال : يبدو لى ولا أصبر [٥] .

---

(١) « الأغانى ومهذبه » .

(٢) « تاريخ آداب اللغة العربية » .

(٣) غمزه : جسه . المشقص : نصل عريض أو سهم فيه ذلك أو نصل طويل أو سهم فيه ذلك .

(٤) « البيان » و « الأغانى » .

(٥) المرجع السابق .

وهو ذو بديهة وسرعة خاطر : أثر عن عدىّ بن الرقاع أنه أنشد فى صفة الظبية وولدها :

تُزْجِى أَغَنَّ كأَنَّ إِبْرَةَ رُوقه . . . . . .

ثم غفل عنه الممدوح فسكت . فقال الفرزدق لجرير — وكانا حاضرين — ما تراه يقول ؟ فقال يقول : . . . قلم أصاب من الدواة مدادها .

وأقبل عليه الممدوح ، فأنشد كما قال جرير ولم يغادر حرفا [1] .

وعرف باعتزازه بنفسه، واعتداده بشعره ، فكان يقول : « إنى لمدينة الشعر التى منها يخرج وإليها يعود » .

وأَدْرَكْتُ مَنْ قد كانَ قَبْلِى ولم أَدَعْ لِمَنْ كانَ بَعْدِى فى القَصَائِدِ مَصْنَعَا

(ل) أيامه الأخيرة :

أتاه فى آخر أيامه نبأ وفاة الفرزدق ، فحزن عليه حزناً شديداً ، ورثاه بأبيات مختلفة منها [2] .

فُجِعْنَا بحَمَّال الدِّياتِ ابنِ غالبِ وحَامِى تَمِيمٍ عِرْضِهَا والمُرَاجِم [3]

بَكَيْناكَ حِدْثانَ الفِراقِ وإنَّما بَكَيْناكَ شَجْوًا لِلْأُمُور العَظَائِم

فلا حمَلَتْ بعْدَ ابْنِ لَيْلَى مَهيرَةٌ ولا شُدَّ أَنْسَاعُ المَطِىِّ الرَّواسِم [4]

روى أن راكباً دنا منه ، فقال له جرير : من أين وضح الراكب ؟ قال : من العراق قال : فهل كان من حدث ؟ قال : لا ، إلا أنى يوم شخصت رأيت

---

(١) « العمدة » .

(٢) « الأغانى » و « تاريخ آداب اللغة العربية » و « الديوان » .

(٣) المراجم : المناضل .

(٣) المهيرة . الحرة . والنسع : سير من جلد تشد به الرحال . والرواسم : النوق من رسمت الناقة إذا أثرت فى الأرض .

جنازة ، وسمعت الناس يقولون : هذا النعش نعش الفرزدق . فقال جرير :

هلك الفرزدق بعد ما جدَّعْتُه ليت الفرزدق كانَ عاشَ قليلا

ثم بكى ، ودمعت عيناه ، فقال القوم : سبحان الله يا أبا حزرة ما يبكيك ؟ قال : بكيت لنفسي ، والله إن بقائي خلافه لقليل ، إنه قلما كان اثنان قرينان أو مصطحبان أو زوجان إلاّ كان أمدُ بينهما قريباً [١] .

وفي علته التي مات فيها كثُر عوّاده [٢] من وجوه الناس ، وعاده نفر من قيس ومن سائر قريش فالتفت إليهم وقال :

أَهُلًا وَسَهْلاً بِقَوْمٍ زَيَّنُوا حَسَبِي وَإِنْ مَرِضْتُ فَهُمْ أَهْلِي وَعُوَّادِي
إِنْ تَجْرِ طَيْرٌ بِأَمْرٍ فيه عَافِيَةٌ أَوْ بِالْفِرَاقِ فَقَدْ أَحْسَنْتُمُ زَادِي
لَوْ أَنَّ لَيْثاً أَبَا شِبْلَيْنِ أَوْعَدَنِي لَمْ يُسْلِمُونِي لِلَيْثِ الْغَابَةِ الْعَادِي [٣]

وتوفي سنة ١١٠هـ بعد الفرزدق ببضعة أشهر بعد أن عُمّر ثمانين سنة ونيّف ، ودفن باليمامة حيث قبر الأعشى [٤] .

---

(١) « النقائض » و « الأغاني » . البين : الفراق .
(٢) العواد : زوار المريض .
(٣) « مهذب الأغاني » .
(٤) « تاريخ آداب اللغة العربية » و « الشعر والشعراء » .